في العربية التاريخية

للدكتور
إبراهيم السامرائي

لقد عُني الباحثون اللغويون في العصر الحديث بموضوع تاريخ اللغات وفاءً لعلم اللغة التاريخي العام ولعلم اللغة المقارن . ولقد كان من ذلك أن حفل العلم اللغوي بدراسات ذات قيمة في تاريخ اللغات، ولا سيما لغات الشعوب المتقدمة . ويهمّنا أن نعرض لشيء من تاريخ العربية على نحو ما تم انجازه من الدراسات الحديثة في عصرنا الحاضر .

أقول : ربما كانت العربية بِدْعًا بين أخواتها اللغات الساميّة ، وذلك لاننا نعرف من أمر تاريخ اللغات شيئا يفوق ما نعرفه من بدايات العربية ؛ إننا نعرف، مثلا، كثيرا من النصوص البابلية الآشورية والاكدية ، كما نعرف قدرا عظيما من اللغة الآرامية ولهجاتها ؛ وقُلْ مثل ذلك عن نصوص اللغة العبرانية وسائر اللغات الساميّة الاخرى ما خلا العربية . أقول ما خلا العربية، ذلك أنّي اعلم ان بين أيدي الباحثين نصوصا من العربية الجنوبية في نقوش جنوبي الجزيرة العربية وشماليها، كما في النقوش القتبانية واللحيانية والثمودية . وليس في طوق الباحث أن يتخذ من هذه النصوص البدايات الأولى في تاريخ العربية ؛ فلا يمكن أن تكون نقوش مَعين وسبأ وحِمْير في الجنوب، ولا النقوش القتبانية واللحيانية والثمودية في شمالي الجزيرة، اصولا تطوّرت الى العربية

الفصيحة التي عرفناهـا في نصوص الأدب الجاهلي . ان النصـوص الأولى التي اشرنـا اليها تُعَدُّ بعيدة كلّ البعد، مـن حيث التطور، عـن النصوص الجاهلية ؛ ذلـك أن الباحث في تلك النصوص يقف ازاء مـادة لغوية بعيدة كثيرا، مـن حيث مبناها ومعناها، عمّا تفصح عنـه نصوص الأدب الجاهلي مثـلا .

لقـد ادركت العربيةُ الجاهليةُ، الممثلةُ بنصوص الشعـر الجاهلي، مستوى عاليا من حيث الأسلوب؛ فقـد اشتملت على صِيَغٍ ومَبانٍ هـي من الاتقان والإحكام بحيث نَهيّا منهـا ان يكون للعرب موازين واقيسـة في الشعر هي الغايـة في الضبط والتدقيق، من حيث الناحيـة الموسيقية. وليس ادلّ على ذلك من ان هـذه الموازين والأقيسة بقيت المثال الـذي يُحْتَذَى في موسيقى الشعر طوال عصور عـدّة ، ولم يستطع اهـل العصور التي تلت أن يضيفوا الـى موسيقى الشعر الجاهلية شيئـا . اقول، لـم يَتأتَّ لأولئك الجاهليين ان يحذقوا ذلك الفـن الا بعد أن كانت موادّ العربية في صِيَغها وابنيتها قد استوفت غايتها من الضبط والإحكام . ولو وازنّا بين ابنيـة العربية ونظائرها في اللغـة العبرانية او في سائر اللغات الساميّة، لوجدنا ان الابنيـة في لغتنا القديمة جـاءت منسجمة ، مشتملة في حركاتها وسكناتها، والتئام اصواتها بعضها ببعض، على ما أتاح للجاهلي أن ينظمها في موسيقى شعرية لا نجدها في اية لغة ساميّة أخرى .

ثـم اذا جئنا الى ما اشتملت عليـه تلك النصوص الجاهلية من معان، وجدنا انهـا حفلت، الى جانب مـا يفصح عن حياة البداوة وعاداتها ورسومها، بمعانٍ تـدلّ على ادراك دقيق للحياة في خيرهـا وشرّها . وليس ادل على ذلك من الاشارات الكثيرة التي حفلت بها مطوّلة زهير بن أبي سلمى، مما يدلّ على فهمـه الكثير من المعاني الانسانية ؛ ومثل ذلـك نجده في سائـر النصوص الجاهليـة .

اقـول، اذا كانت القصيدة الجاهلية قـد ادركت في مبانيها ومعانيها هذا القدر السامي من الاجادة في البنـاء الموسيقي، والتوفر على شـيء

كثير من الفكر الانساني ، فلا بدّ أن تكون هذه المواد الأدبية الجاهلية قد تطوّرت تطورا عظيما ، ومن ثم فلا بدّ أن تكون قد سبقت هذه المرحلةَ من النضج مراحلُ اخرى لا نعرف عنها شيئا .

ولو اتيح لنا ان نوازن بين ما اثر من الوان العربية القديمة الممثلة في النصوص الجنوبية ، وهي لغات النقوش في معين وسبأ وحمير ونظائرها من العربية الجنوبية في شمالي الجزيرة،وهي اللغات القتبانية واللحيانية والثمودية ، وبين نصوص الشعر الجاهلي،لأتّضح لنا بُعْدُ الشقّة بينها . ومعنى هذا لا يمكننا ان نَعُدَّ تلك اللغات القديمة الممثلة بالنقوش الأصولَ المفقودة التي كانت الأساس الذي تطوّر في نصوص الشعر الجاهلي .

ومعنى هذا ايضا لا بد من القول : إنّ حلقاتٍ عدّةً من النصوص قد ضاعت ففصلت بين الأصول وبين ما نجده من حال العربية في نصوص الشعر الجاهلي .

بعد هذه المقدمة الموجزة لا بد من البحث في المأثور من العربية القديمة،فنعرض لموادّها مستقْرين فاحصين،لنرى ما عَرَض لها من التزيّد والانتحال الذي لا بد لنا من كشفه حتى نتبين الصحيح من هذه اللغة العربية .

اقول : لقد قيل الكثير في مسألة الانتحال في الشعر ؛ ذكَر ذلك المتقدمون،ويكفي ان نذكر قول المفضل الضبي الذي ذهب فيه الى ان الشعر الجاهلي قد نال من خَلَف الاحمر ما هجَّنه وافسده،فلا يصلح ابدا . وقد فصَّل القولَ ابنُ سلام الجمحي في هذه المسألة . ثم كان للمحدثين في عصرنا الحاضر مشاركة في هذا الموضوع ؛ واولُ من بحث في ذلك المستشرقون،مثل نولدكة الالماني،وباسيه الفرنسي ، ومرجو ليوث الانكليزي ، كما شارك في ذلك العلماء العرب،ولا ننسى في ذلك مشاركة الدكتور طه حسين .

ولقد قيل في وضع الحديث الشريف، وماذا زاد فيه الوضّاعون والكذابون ، وما غيّر فيه المدلّسون والضعفاء، حتى كان من ذلك نشأة ما سُمّي في علوم الحديث بـ « الجرح والتعديل ». ثم كانت طبقات للمحدثين صنّفوا حسب توافر الثقة والصدق والأمانة فيهم . وكان من كل هذا ان صُنّفت المصنفات الضخمة في الأحاديث الموضوعة .

ومن غير شك ان الكذب والافتراء والانتحال قد عُرض لنصوص التاريخ القديم عامة، فظهرت كتب في التاريخ ابتعدت عن العلم، فزادت في العبث استجابة لهوى، او خدمة لنِحْلة او بِدْعة او ضلالة ، وكلٌّ هذا معروف مشهور .

ولكني لم اجد كثيرا ممّن عَرَض للمادة اللغوية، فاستقرى الصحيح، واشار الى المفتعل الموضوع ، الا شذراتٍ من اخبار تشير الى ان شيئا من الوضع قد وقع .

وقد عُنيتُ في هذه المقالة بأمر رواية اللغة وما عرض لها من موادّ هي من غير شك من صنع الوضّاعين ؛ وما اظن ان جمهرة من هذه المواد قد عرفها العرب ولاكتها السنتهم فجرت في كلامهم. وساعرض لهذه النماذج الكثيرة .

جاء في « المزهر » (١) للسيوطي :

« قال ابن فارس في « فقه اللغة » :

تؤخذ اللغة سَماعا من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ، ويُتّقى المظنون :

حَدَّثنا علي بن ابرهيم عن المعداني عن أبيه ، عن معروف بن حسان، عن الليث، عن الخليل، قال :

« ان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب، ارادة اللبس والتعنيت » .

قال ابن فارس : "فليتحرّ . آخذ اللغة اهل الامانة والصدق والعدالة،فقد بلغنا من امر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا »

ومن هنا نعلم ان الخليل قد عرض لهذا الموضوع ؛ وقوله « ربما ادخلوا » يعني انهم ادخلوا،واستعمال « ربما » في اللغة القديمة يُفيد التكثير كثيرا،كما اشار اهل النحو،كما يُفيد التقليل قليلا .

ولشيوع الكذب في اللغة قالوا : تؤخذ اللغة من ذوي الصدق والامانة،ويُتّقَى المظنون.ثم قالوا،لا تؤخذ من الطفل والمجنون ؛ وذهب قوم فمنع أن تؤخذ من « العبد ».وهم يجرون مجرى أهل الحديث والاثر في تحرّي الصدق والثقة والامانة .

واذا عرفنا ان الوضع قد عَرَض للحديث،وأن الوضّاعين والمدلّسين من أهل الحديث جمهور كبير،فليس غريبا ان نجد شيئا من ذلك يعرض للمادة اللغوية .

ثم اذا عرفنا أن الوضاعين قد عبثوا في الحديث الشريف،والرسول الكريم يقول : « من كذب عليَّ منكم متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »، وادركنا سوء صنيعهم،فهمنا ان قضية الوضع في المسالة اللغوية شيء ليس ذا خطر كبير .

ولا نذهب بعيدا في الاستدلال على وجود الانتحال والكذب في المادة اللغوية،وربما يكفي أن نذكر قول رؤبة بن العجاج الراجز المشهور . لقد ضاق رؤبة ذرعا بيونس بن حبيب،وهو من علماء اللغة المتقدمين ممن أخذ عنهم سيبويه .

لقد كان يونس من علماء اللغة،يجمعها عن رواتها من الاعراب وغيرهم،فكان كثير السؤال لرؤبة هذا لما اشتهر عن رؤبة وابيه العجاج منّ انهما قد اكثرا من الغريب والنوادر في ارجازهما . قال رؤبة ليونس بعد أن أكثر من مساءلته وضاق به ذرعا : « حتى متى تسالني عن هذه الاباطيل وأُزَوّقها لك ، اما ترى الشيب قد بلغ في راسك ولحيتك؟» (٢).

وحكى ابـــو عبيدة عن ابن داود بن متمم بـــن نويرة شيئا يقرب من ذلك، فقـــال :

« قَـــدِم البصرة في بعض ما يَقْدم لـــه البدوي في الجلب والميرة، فنزل النحيت، فأتيته انـــا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيـــه، فجعل يزيد في الاشعار ويضعها لنـــا ، واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هـــو يحتذى على كلامـــه (٣) فيذكر المواضع التي ذكرهـــا متمم، والوقائع التي شهدها ؛ فلمـــا توالى ذلك علمنا انـــه يفتعله » .

اقـــول : ان هذا الخبر الثاني لا يشير الـــى وضع الكذب في اللغة، ولكنه يشير الـــى ان الوضع في النص الادبي ؛ ولكني ذكرتـــه لأشير الى ان الاختلاف والوضع والكذب شيء عـــام، فكما عَرَض للنص الادبي عَرَض لمـــواد النصوص الادبية، وهي المـــادة اللغوية. ومن غير شك ان ما جرى بين يونس بن حبيب ورؤبـــة بن العجاج الراجز مفيد كـــل الافادة في ان كثيرا من مـــادة الغريب والنوادر هـــو مما افتعله اولئك « النحارير » .

ومن المفيد ان اشير الـــى ان كثيرا مما سأعرض لـــه من المـــادة اللغوية التي تشير الى انهـــا موضوعة ورد من غير اي شاهد مـــن نَصّ صحيح فصيح ؛ ثم إنْ وُجِـــد ذلك الشاهد فهو رجز نادر لا يُعرَف قائلـــه، او يكون احـــد هؤلاء « النحارير » المشاهير، مثل رؤبـــة وغيره من الرُجّاز، كمـــا سنـــرى .

ومن المفيـــد ان اعرض لشيء مما اثر عن كبـــار اللغويين النحاة، لأُشير الى شيء ممـــا ذهبتُ اليه من مسالة الوضع في اللغـــة .

جاء في اخبار ابي العباس محمد بن يزيد المبرّد، صاحب « الكامل » :(٤)

« وقال أبو عبد الله المنجع : كان المبـــرد، لعظم حفظه اللغة واتساعـــه، يتهـــم ؛ فتوافقنا على مسالة لا اصل لهـــا نسأله عنها لننظر كيف يجيب ، وكنا قبل ذلـــك تمارَيْنا في عروض بيـــت الشاعر :

ابـــا منذر افنيتَ فاستبق بعضنا
حنانيك، بعضُ الشرّ اهونُ من بعضِ

فقال قـــوم : هو من البحر الفلاني ؛ وقال آخـــر : هو من البحر الفلاني،فقطّعْناه وتردد على أفواهنا تقطيعه،ومنـــه « ق بعضنا ».فقلت : ايدك اللـــه تعالى ، ما القبعض ؟ فقـــال : القطن ؛ يُصدِّق ذلك قـــول الشاعر : « كأن سنامها حشي القبعضا » .

قـــال : فقلت لاصحابه : ترون الجـــواب والشاهد ؛ ان كـــان صحيحا فهـــو عجيب،وان كان اختلق الجـــواب في الحال فهو اعجب .

ومثل هذا مـــا ورد في ابي عمر الزاهد « غلام ثعلب »،فقـــد اشتهر عنه انـــه لا يُسأل الاّ اجاب،فقد كان كثير الاملاء،عالمـــا بالاخبار واللغة والادب،متَّهمًا بالكذب والتزيّد .

جـــاء في « انباه الرواة » (٥) للقفطي :

« ويروى أن جماعة من اهـــل بغداد اجتازوا على « قنطرة الصراة » وتذاكروا كذبـــه،فقال بعضهم : انا أُصحّف لـــه القنطرة واسأله عنها فانه يجيب بشيء آخـــر ؛ فلما صرنا بين يديه قال : ايها الشيخ مـــا الهرطنق عند العرب ؟ فذكر شيئا قد أُنسيته،فتضاحكنا واتممنا المجلس وانصرفنا . فلما كان بعـــد شهر ذكرنا الحديث فوضعنا رجـــلا غير ذلك نسأله،فقال لـــه : ما الهرطنق؟ فقال : الست قـــد سألت عن هذا المسألة منذ كذا وكذا ؟ فقال : هي كذا.فما درينا مـــن اي الامرين نعجب ؛ من ذكائه ، إن كان علما فهـــو اتساع طريف ، وان كان كذبا في الحال ثم قـــد حفظه ، فلما سئل عنه ذكـــر الوقت والمسألة فأجاب بذلك الجواب فهو اطرف .

ومثل هذه الاخبار كثير في مصادرنا العربيـــة،وهي مفيدة في نظـــر الباحث المدقق . اقول : قد تكون هـــذه الاخبار موضوعة بقصد السمر او النيل من فلان وفلان ممـــن اشتهروا بالعلم ، او قد تكون قـــد حيكت لبيان فضل فلان وفلان وتقدُّمـــه في العلم من الناحية الاخرى . غير انـــي اذهب من كـــل ذلك الى ان شيئا من الوضع في اللغة قـــد حدث،وانه بسبب من ذلك كانت لنا مـــوادّ ضخمة تحجرت في بطـــون المطوّلات .

واني لاعرض لشيء من ذلك اتخذ منه نماذج ، واود أن اقول بادىء ذي بدء إن هذه المخلفات اللغوية تتناول في الغالب المعاني الخَلْقية الحيّة مما يدخل في باب « خلق الانسان والحيوان » . ثم انها تشتمل على أبنية خاصة نافرة . اقول : نافرة،لانها قليلة الورود في لغتنا القديمة العريقة ؛ فهي والحالة هذه قد عفى عليها الزمان في عربيتنا المعاصرة .

ويبدو لي ان أولئك النحارير الكبار قد اهتدوا الى هذا الوضع والافتعال سعيا وراء الغريب والنادر،وولوعا بتلك الاوابد النافرة،وحبًّا باظهار العلم والاجتهاد فيه . ثم انهم اتخذوا من بعض المواد التي تُثبت صحتها واستعمالها اصولا،فزادوا في اصواتها صوتا ظنوا انه يزيد المعنى قوة،فقالوا مثلا : خنبث وخُنابث،والرجل الخنبث والخُنابث هو المذموم الخائن . ومن غير شك ان هذه الكلمة لم ترد في نص قديم منسوب او غير منسوب،والذي اراه انها صُنعت من مادة « خبث»، فزادوا في أصواتها النون،والتزموا بناء غريبا من أبنية الرباعي،وذهبوا الى المعنى الذي ارادوه،والذي لا يبتعد عن اصل المادة الثلاثية كثيرا . ومن المفيد ان انبّه الدارس الى ان بناء « مُعالِل »،بضم اوله وكسر ما قبل الآخر،من الابنية التي هجرتها العربية الفصيحة منذ قرون طويلة بَلْهَ عربيتنا المعاصرة .

هذا مثل اسوقه لأُخلُص الى تحقيقي الوافي الذي اعتمدت فيه على كتاب « الجمهرة » لابن دريد (٦) ، واقتصرت منه على ما جاء في « أبواب الرباعي الصحيح » من المجلد الثالث . ويحسن بي ان اهوّن على القارىء فاتخذ منهجا واضحا ؛ وهانا ابدأ بمعنى « الصلب الشديد » فاعرض لطائفة من الالفاظ التي وقفتُ عليها من هذا المعنى،فاجد : العتبل ، والنبتل ، والكنبث والكنابث ، والجلدب ، والعكبل ، والجلبز والجلابز ، والبعثج ، والعضبل ، والشنزب ، والكمتر والكماتر ، والكمتل والكماتل ، والجلعد والجلاعد ، والجلفز والجلافز ، والعردل والعصلد ، والعكلد والعندل ، والصمصلّ ، والعكلد والعلكد ، وسيطر ، وضبطر ،

وكندث وكنادث وشعثم ، وعردل . ومثل هـذا كثير .

تعليـــق :

أقـول : ان هذه الطائفة من الالفاظ هي قليـل من كثير في معنى « الصلب الشديد » أو « الشديد الصلب » . وقـد وردت على هذا اللون النادر في ابنيتها وفي مكانهـا من اللغة،فلم ترد في اي نصّ كـان،موضوعا أو غير موضوع . ثم إنها لـم تلصق بموصوف معروف،فلم اتبين انهـا من صفات ولوازم العاقلين،كما لم اتبين انهـا من لوازم غير العاقل مـن الحيـوان والجمـاد.

غـير أن العارف بالمعجم القديم واصوات العربيـة يدرك انصراف الاصوات لمـا يمكن ان يكون شيئا من معنى حسّيّ او ظِلّ لذلك المعنى . أريـد ان اقول مثلا إن سلحب وسلهب تشـيران الى « الطول ».قـد نحس هـذا من معرفتنا أن في « سحب » و « سهب » شيئا ممـا يُشعِر بهذا المعنى ؛ وهكذا زاد الوضع وزاد الافتعال،وكثرت المتحجرات،وسَمِّها ما شئت مـن نوادر وغريب واوابد .

وقـد ترد طائفة من هـذه الالفاظ مشيرة الـى « الصلب » او « الشديد » أو « كليهما » او ما في معناهما،الى جانب « رجل » او « أسد » أو « حمار » فتكون كالصفات.ومن هـذا :

الكندر والكنادر = الحمـار الصلب الشديد .

واسـد مشرّب وغشرّب وعشرّم = غليظ شديد .

وجمل غبنّك = شديـد صلب .

ورجل قنبل وقنابل = غليظ شديـد .

ورجل كنبـل وكنابل = صلب شديد .

تعليـــق :

لا ارى ان كـــان صوت القاف في « قنبل » هـــو الذي غيَّر المعنى من « الصلب » الـــى « الغليظ » ! ذلك انهـــم قالوا : كنبل،صلب شديد .

وقـــد وجدت من ذلك انهـــم قالوا :

عنتـــل = صلب شديد ، امـــا غنتل (بالغين المعجمة) فهي الخامل ! فهل صحيح ان العرب نطقوا بالكلمـــة مبدوءة بالعين المهملة لتعني الصلب الشديد،وبالغين وهـــي نظيرتها وتعني الخامل . انهم لـــم يذكروا اي شاهد على ذلـــك .

ومن المفيـــد ان اشير الى ان « عنتل » ربما يكون قريبـــا من « عتل » التي وردت في قولـــه تعالى،« عتل بعد ذلك زنيـــم » .

ولا بـــد ان اعرض لبقية من هـــذه المعاني الحسية التي تدخل في خلـــق الانسان والحيوان وصفاتهما،ممّـــا ورد يتيما في مطولات اللغة،ولم نظفر بـــه في نص ثبتت نسبته،ولـــم يرد في اضعف الاحوال في رجز من الارجاز . وساعرض لطائفة مـــن الالفاظ التي لم تُعرَف الا عند الرجازين ممـــن يتساهلون في صنع هـــذا اللون من الكلام .

قالـــوا : الجنبخ والجنابخ = العظيم مـــن كل شيء .

الجنبز = القصير ؛ الجعشب = الطويـــل الغليظ .

ومـــن الطريف ان يكون مقلوب « الجعشب » شيئا آخـــر، فقالوا، العشجب = الرجـــل المسترخي . كل هذا من غـــير ان يُشفَع بشاهد يعطي شيئا من الثقـــة .

ومثل هـــذا : الدَنْبَخ = السيء الخلق،في حين الدنحبة = الخيانة . ورجل شرحب = طويل ؛ والجركي = القصـــير المتداخل .

وسحتب = اسم،وهـــو الجريء المقدّم ؛ والكلتب والكلتبة = شبيه بالمداهنـــة .

والبهكنة = السرعة فيما أُخِـذ فيه من عمل .

والسلحب والسحبل = الطويـل .

تعليـــق :

لـم يغيِّر القلبُ شيئا من المعنى،وسبحل وسبحلة = طويـل ضخم ، وطويلـة ضخمـة .

وقـد ذكروا في هـذا رجزا مشهورا هـو :

سبحلـــة ربحلـــه تنمي نمـاء النخله

وسكتوا عـن « ربحلة » ولم يقولوا فيها شيئا،ولعلها شيء مـن « الاتّباع » مثل : شذر مذر ونحوها .

والكنتب والكناتب = القصـير المتداخل ؛ ورجل خنبث وخنابث = الخائن ؛ وشنبث وشنابث وهـو الغليظ من الناس ؛ ورجـل كلبث وكلابث = متقبض بخيل؛ورجـل حبجر وحباجر = عظيم البطـن ، وربما سمي الغليظ حباجر ؛ ورجـل جحرب وجحارب = العظيم الخلق ؛ ورجل طرمب = طويـل قبيح في الطول .

وحبجر وحباجر = ذُكُـر الحبارى؛وكذلك حبرج وحبـارج ؛ والبحرج = ولـد البقرة الوحشية؛وخبجر وخباجر = المسترخي البطن .

تعليـــق :

وقد مَـرَّ بنا أن حبجر وحباجر (بالحاء المهملة) يفيـد عظيم البطن ، ولا ادري كيـف تطلق الدلالة .

ورجل جلحب وجلحاب وجلاحب = الشيخ العظيم الجسم وفيـه بقيـة ؛ ورجل جحنب وجحانب = القصير الغليظ ؛ والحنجب = اليابس من كل شـيء ؛ وخلبج وخلابج = المضطرب الخلـق الطويل . وجنبخ وجنابخ = الطويل الخلق ، والجسرب = العظيم الطويل ؛ والشرجب = الطويل مـن الناس والخيل .

ورجل جعبر = القصير المتداخل ؛ والجعبر أيضا = التعب الغليظ الذي لم يُحْكَم نحتـــه .

والجرعب = الجاني ؛ والجنبـز = القصير ؛ والكهدب = الثقيل الوخـــم .

تعليـــق :

مـرَّ بنا أن الجلبز = الصلـــب الشديد !

الجعشب = الطويـــل الغليظ .

ولا بـــد أن نعرف أن مقلوبها مـــع تغيير الضمتين الى فتحتين،وهو العشجب،يفيـــد الرجل المسترخي،ثم زادوا فقالوا : المخبول مـــن جنون ونحـــوه وليس بثبت .

وسأعرض لطائفة مـــن الالفاظ ذكروا أنهـــا « ليست بثبت ! »

والهلج أصل بناء قولهم : رجل هلباج وهلباجة وهلابج = الثقيل الوخم.

والحربق = القصير المجتمع ؛ الدنـــج = السيء الخلق ؛ ورجـــل شرحب = طويل ؛ وحصرب مـــن الحصربة = الضيق البخيل ؛ ورجـــل دخبش ودخابش = العظيم البطـــن .

والخضربة = اضطراب المـــاء ؛ ومـــاء خضـارب ، وشخارب = الغليظ الشديد ؛ ورجـــل سلخب = قـــدم ؛ وشنخب = طويل ؛ وناقة خدلب = مسنّـــة مسترخية .

والخدلبة = مشية فيهـــا ضعف ؛ والخترية منهـــا اشتقاق الخنزوب والخنزاب = الجريء على الفجور ؛ ورجـــل كنابد (بالدال المهملة) = صلب شديد ؛ ورجـــل كنابذ (بالذال المعجمة) = غليظ الوجه جهـــم ؛ وعرزب = غليظ شديد ؛ وعرزب = صلب شديد . وناقة بلعس وبلعس وبلعك وبلعك،اي المسترخية المتبخبخة اللحـــم .

تعليـــق :

ولا ادري ان كـان تغيير الضبط بالحركات قـد ادى الى هـذا التغيير الطفيف فـي المعنى .

ورجـل برشع وبرشاع = سيء الخلق ؛ التهزب = القصـير ؛ العصلب = الطويـل المضطرب؛ علبط وعلابط الرجل الغليظ ؛ ولبـن علبط وعلابط اذا خثر ؛ ورجـل هبقع وهباقع = قصير ملزز الخلـق ؛ وجمل غبنّك = شديد صلب ؛ والدهكث = القصير ؛ والدلث والدلامث = السريع ؛ وبعير دلهث ودلاهث = الجريء في سيره ؛ وكنثر وكناثر = المجتمع الخلق ؛ والحرجل = الرجـل الطويل ؛

وامـراة حفضج وحفاضج = عظيمة البطـن ، وكذلك مفضج ؛ وأتان سمحج = طويلـة .

والشرجع = الطويل ؛ ورجـل بلعث وامراة بلعثة = هـو الاهوج وهي الرخواء في غلـظ؛ورجل جنعظ وجنعاظ = هـو الجافي الغليظ الاحمق ؛ وقالوا : هـو القصير المجتمع الخلق .

تعليـــق :

لقـد لاحظت على طائفة من هـذه الغرائب ابتعادا في الدلالة،وهذا قـد يعني ان الكلمة قد توحي لاحدهم شيئا في حين انها توحي لآخر شيئا آخر ، وكل ذلك جائز مـع غياب الشاهد والاستعمـال .

وعجوز هرشفّة = مسنّة ؛ ويقال : بـل الهرشفّة خرقة يُنَشَّـف بها المـاء من الارض او من الحصى .

تعليـــق :

وهـذه الهرشفة نظير سابقتها وهـي الجنعظ والجنعاظ ، ولا يمكن للدارس أن يطمئن الى هذا الذي ذكر في مطولات اللغـة من الكلم الغريـب المهجـور .

ورجـــل حظبّة وحظبّ = الغليظ .

وقالوا : هجّ = جافّ وغليظ ؛ والهزّ = السريع ؛ والخدمّ = عظيم الخلق (للبعـــير) .

ويقـــال : هدبد وعثلط وعجلط وعكلط،وهـــو اللبن الخاثر .

تعليـــــق :

وهـــذا من اعجب العجب؛فكيـــف تكون جملة هذه الالفاظ التـــي جاءت على بنـــاء واحد،وكلها بدأت بصوت العـــين؛ تؤدي معنى واحدا هـــو اللبن الخاثر !

والهدبد ايضا داء يصيب الانسان في عينه كالعشا فلا يبصر بالليل .

الفـــاظ مـــع شواهدهـــا

وهـــذه الطائفة من الالفاظ ذات شواهد،والشاهد إمّـــا ان يكون بيتـــا او رجزا غير معروف ولا منسوب ، وإمّـــا ان يكون مثالا مصنوعا على طريقة النحاة في قولهم : قام زيـــد وجلس عمرو .

الجردبة : يقال : رجـــل مجردب الذي يستر يمينـــه بشماله ويأكل ، قـــال الشاعـــر :

اذا ما كنت في قوم شهادى

فـــلا تجعل شمالك جردبانا

واجلعبّ الرجل اذا سقط على وجهه

واجلعبّ الفـــرس اذا مـــرّ سريعا

تعليـــــق :

ومـــا ادري كيف اثق بهذين الاستعمالين على البعـــد وما بينهما وافتقارهما الى الكـــلام الاصيل .

ومثل ذلك : ابلندح المكـــان اذا اتّسع ؛ وابلندح الحوض انهـــدم قـــال الراجـــز :

قـــد داست المركوَّ حتى ابلندحا

البغثر وهـــو الاحمق الضعيف ؛ قـــال الراجز :

ليعلمنَّ البغثر ابـــن البغثر

ومـــن ذلك : زلحب،من قولهم : تزلحب عـــن الشيء اذا زلَّ عنه .

ويقـــال : عثلبت الحوض اذا هدمته،عثلبة وعثلابا ؛ قـــال الراجز :

« والنؤى بعـــد عهده المعثلب »

وقـــال الآخر : « والنؤى امسى جدره معثلبا » .

ومـــن الطريف ان يكون « غثلب »،بالغين المعجمة،شيئا آخـــر ؛ يقال : غثلب المـــاء يغثلبه اذا جرعـــه جرعا شديدا .

خدرب : اسم،ودربخ احسبها سريانية،وهـــو التذلل والاصغاء الى الامر ؛ قـــال العجاج :

ولـــو نقول دربخـــوا لدربخوا لَفَحْلِنـــا ان ســـرَّه التنـــوّخُ

تعليـــق :

سآتي على طائفة مـــن الالفاظ التي ظنوا تَوَهُّمًا وتصوُّرًا انهـــا دخيلة،وربما عرّبت؛وليس شيء مـــن ذلك قائما على ثقـــة وصحة وتأكُّد وانما هو ظن ورجم بالغيب ؛ ثـــم ان المعنى في هذه الكلمة استوجـــاه اللغوي القديم من قـــول الراجز الذي لا يتوقف امـــام القافية،فهو يصنع اللفظة وهي توحي مـــا توحيه ؛ ومثل هذا ما نستشعره كثيرا في الاراجيز، وقد لمحـــوا الى شيء من ذلك .

بخذع وخذعب : يقال ضربـــة بالسيف حتى بخذعه وخذعبـــه .

سربخ : هـــو الفضاء القفر ؛ قال عبيـــد :

فابصرت ثعلبا بعيـــدا ودونـــه سربخ جديـــب

وخطرب وخطارب وهـــو التقول بما لم يكن ؛ جـــاء فلان يخطرب.

تعليـــق :

ولا ادري مـــا العلاقة بين هذا وبـــين قولهم :

الخطربة والحطربة والحظربة تعني الضيـــق في المعاش ! ومن قال هـــذا،وأين،ومتى ؟

خرباش : وقع القوم في خرباش،اي في اختلاط وصخب ، لغة يمانية .

تعليـــق :

لعـــل الباحث يستطيع أن يجمع طائفـــة ضخمة من الالفاظ التي « زعـــم » ابن دريد في « الجمهرة » انها يمانية،وليس مـــن دليل يثبت هذه الاصالة في الموطن القديـــم .

وخبرقت الثوب اي شققته . ومثلـــه الخزلبة ؛ يقال : خزلبت اللحم او الحبل اي القطـــع السريع .

تعليـــق :

لعـــل هذا المعنى من لمـــح الثلاثي وهو « خرق » و « خزل »،وقد زيـــد الباء في الفعلين ارادة التكثير او التخصيص ؛ ومثل هـــذا حاصل . ولكني اتساءل هل وُجـــد الفعلان في كلامهم الفصيح المعروف ؟

ومثل هـــذا « بزمخ » اي تكبَّر.ومن غـــير شك أن الثلاثي « زمخ » يفيد هذا،فزيد اليـــاء .

زغدب . قالوا : فـــلان يزغدب على الناس اذا كـــان يلحف في المسألة ؛ هـــذا عن مكوزة الاعرابي .

تعليـــق :

كـــأن صاحب الجمهرة « أراد أن يبعد التبعة فذكر هـــذا الاعرابي « مكوزة ؟ » الا يرى الباحـــث أن هؤلاء الاعراب قد أريد لهـــم أن يضعوا ويفتعلوا ويأتوا بالكلام البارد ؟ ومثل هذا ما ذكروا في مادة « بخدق » (٧) :

اخبرنا ابـــو حاتم ، قال : سألت ام الهيثم (الأعرابية) عـــن الحَب الذي يقال بـــه بالفارسية اسفيوش مـــا اسمه بالعربية ؟ فقالت : أرني منه حبّات، فاريتهـــا وافكرت ساعة ثم قالت : هـــذا البخدق، ولم اسمعه مـــن غيرهـــا .

ولمـــا كان الكلام على الافتعال فلا بـــد ان اورد قصة ام الهيثم هذه :

قال عمر بـــن خالد العثماني : قدمت علينـــا عجوز من بني منقر تسمى ام الهيثم، فغابت علينـــا ، فسأل عنها ابـــو عبيدة فقالوا : انها عليلة ، فقال : هـــل لكم ان نعودها؟ فجئنا فاستأذنّا، فقالت : لِجـــوا . فسلمنا عليها، فـــاذا هي عليها اهدام وبجـــد ، وقد طرحتها عليهـــا ؛ فقلنا : يـــا ام الهيثم كيف تجدينك ؟ قالت : كنـــت وحمى بالدكة (الودك) ، فشهدت مأدبة فاكلت جبجبة مـــن ضعيف هلمة فاعترتني زلخة . فقلنـــا يـــا ام الهيثم : اي شيء تقولين ؟ فقالـــت او للناس كلامان ؟ واللـــه ما كلمتكم الا بالعربي الفصيـــح .

وهـــذا الذي زعموا ان ام الهيثم ذكرته لم يقل بـــه غيرها ، وهو ان كان صحيحا والخبر ثابتا فـــان من غير شك ان الأعراب شاركـــوا في هذا العمل المفتعل المختلق . وفي مطوّلات العربية مـــادة كثيرة لم تُسمع الا من واحـــد من اللغويين، فقد أُثر عن اللحياني، من علماء اللغـــة، مسائل كثيرة تَفرَّد بهـــا فجاءت غريبة عـــن المتوارد المسموع .

ويبـــدو انهم كانوا لا يشكّون كثيرا فيما يقال إنّـــه مسموع عن الاعراب. ذكـــر يونس فيما زعموا انـــه سمع بعض العرب يقولون : ما هذه الكنخبة ؟ يريـــد الكلام المختلط من الخطـــا (٩) .

ومن هذا الباب الذي استشهدوا عليـــه بالرجز اليتيم قولهم : رجـــل ترشب، اي طويل ، ويقـــال للشيخ اذا عسا وغلظ، « ترشبّ » ، وقـــال ابـــو محمد الفقعسي :

كيف قريت شيخـــك الترشبّا لمـــا اتاك سائلا مخبّـــا

وقالوا : رجـــل شهبر وامراة شهبرة اي مسنّة لـــم تحطمها السن ؛ قـــال الراجـــز :

رُبَّ عجوز من اناس شهبره علمها الانقاض بعد القرقره

ويبدو ان الراجز ينصرف في الكلمة حسب الحاجة،فقد قلبت « شهبرة » الى « شهربة » فقال الراجز :

ام الحليس العجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

فصارت من شواهد النحو في مجيء خبر المبتدأ محلى بلام الابتداء للتوكيد،خلافا للمشهور من مجيء اللام داخلة على خبر « ان » .

وقالوا : تبعرص الشيء اذا قُطِع فوقع يضطرب . ذكر ابن الكلبي ان الشنفرى لما خرج من البئر قُطِعت يده بعد ان ضربه رجل فتبعرصت يده وكانت بها شامة فقال :

لا تبعدنْ لا تبعدنْ يا شامه ...

وقالوا : زعبل وهو اسم،واشتقاقه من قولهم : « صبي زعبلٌ اذا كان سيّيء الغداء كادى الشباب . ومن امثالهم،(لا يكلم زعبل) .

وقالوا : الصبعطي والضبغطي وهي كلمة يفزع بها الصبيان ، قال الراجز :

وزوجها زونك زونزي يجزع ان فُزّع بالضبغطي

وقالوا : الطلخشة التلطّخ بالشيء ؛ ذكر ابو مالك وابو الخطاب الاخفش : طلخثَهُ طلخثةً اذا لطّخه بامر يكرهه .

وقالوا : حضجم وحضاجم اي الجافي الغليظ اللحم ؛ قال الراجز :

« ليس بمبطان ولا حضاجم »

وقالوا : الدعجلة اي الاخذ الكثير ؛ قال الاسعر الجعفي :

باتت كلاب الحيّ تسنح بيننا ياكلن دعجلة ويشبع من عفا

ثم قالوا : الدعجلة اختلاط الالوان في ثوب او غيره . اين هذا من ذاك ؟ وقالوا : شمرج الرجل اذا عمل عملا غير محكم .

وقالوا : فمجر المـــاء اذا جرعه جرعـــا شديدا .

وقالوا : افرنجم اللحـــم اذا تشيَّط من اعلا ولـــم يُنْشُو .

وقالوا : علهضت القارورة اذا صممت راسهـــا؛هكذا يقول الخليل ؛ قال ابو حاتم،هذا بنـــاء مستنكر ويقال : عضهلت . ويقال : دحقبـــه اذا دفعه من ورائـــه .

الفـــاظ اخـــرى

وهذه طائفة من الالفاظ منها مصادر تدل علـــى كثرة الكلام واختلاطه، واخرى تدخل على المشي وما يتصل بـــه ، ومنها الفاظ قالوا انها موضوعة وليست بثبت او انهـــم ،

قالوا : جعتب اسم ماخوذ من فعل مُمات ؛ والجعتبة الحرص والشره .

وقالوا : الصعتب،واصـــل الصعتبة مقاربة الخطـــو والخفّة .

وقالوا : عنبث والجمع عنابث،وهـــي شجيرة زعموا وليس بثبـــت .

وقال ابن دريد : السبرجة احسبهـــا دخيلة في العربية من قولهـــم : سبرج على هـــذا الامر اذا عمّـــاه .

وقالوا العشجب اي الرجـــل المسترخي؛وقالوا المخبول مـــن جنون ونحـــوه،وليس بثبت .

وقالوا : الشهجبة اي اختلاط الامـــر .

وقالوا : خرزب ماخوذ من الخرزبة،وهـــو اختلاط الكلام وخطلـــه .

ومثله : هذربة وهذرمـــة،وتعني كثرة الكلام ، امـــا الهزربة فهي الخفّـــة والسرعـــة .

ومثل هـــذا : الهرثمة والحذرمة،وكلّهـــا كثرة الكلام .

وقالوا : الخنبصة (١٠) اي اختلاط الامـــر .

وقالوا : الخطلبة وهي كثرة الكـــلام واختلاطه،ومثلهـــا الهزمجة اي اختـــلاط الصـــوت .

وقالوا : الدربلة وهي ضرب من مشي الانسان فيه ثقل، كقولهم : جاء يدربل .

وقالوا : ذدلبت اللقمة اذا ابتلعها وليس بثبت .

وقالوا : البركلة والكربلة، وهي مشي في الطين أو خوض في الماء ؛ وكربلت الشيء خلطته بعضه ببعض .

وقال ابن دريد : الرهبلة احسبها ضربا من المشي، وليس بثبت ؛ قالوا : جاء يترهبل اي يمشي مشيا ثقيلا .

وقالوا : ذحلط في كلامه اذا خلط .

وقالوا : الحضرمة اي اللحن في الكلام . والهتمرة اي كثرة الكلام .

وقالوا : الهبرمة، زعموا كثرة الكلام ولا احققه . وقالوا : العذرمة والغذرمة والغذمرة اختلاط الكلام .

وقالوا : زلهب، زعموا انه خفيف اللحية ؛ قال ابن دريد ولا أحققه .

وقالوا : الدرقمة العَدْو الشديد مع فزع، ومثله: القعسبة والكسعبة .

وقالوا : القنطئة وهي العدو بفزع. قال ابن دريد وليس بثبت .

وقالوا : الثخرط والثخروط نبت زعموا وليس بثبت .

وقالوا : تخطع اسم ؛ قال ابن دريد : واحسبه مصنوعا .

وقالوا : عفشج اي ثقيل وخم زعموا ؛ ذكر الخليل انه مصنوع .

وقالوا : عجوز جلقق اي كثيرة اللحم مسترخية ؛ قال ابن دريد : واحسب ان هذا الحرف مصنوع لان الجيم والقاف لم تجتمع الا في احرف معروفة .

وقالوا : الحوكلة أن يمشي ويضع يديه في خصره ويعتمد عليها .

وقالوا : الحركلة والحرقلة ضرب من المشي ؛ والخذعلة والخزعلة والخزرفة وهي أن يمرّ الرجل يخطر .

هـذا تحقيق في طائفة من الالفاظ الرباعية البنـاء ، وهي من غير شك من مـادة الغريب المهجور ؛ وقد كنت اشرت الـى ان شيئا كثيرا من هذا لا يوحي انـه ورد في كلام العرب او ان الالسن قـد لاكته . ومن اجـل ذلك فهي مخلّفات لغوية لـم تكتسب الحياة منذ أن وضعت . وقد لمحنا ان اهـل اللغة قد وقفوا منها موقفـا خاصا،وإن كانوا قـد سعوا الى جمعها وضبطها رغم أنهم لم يتحققوا الكثير من اصالتها وصوابها.

ان معجمنا القديم لهـو وعـاء واسع اشتمل على فوائد جمّـة، نستخلصها فتتبين لنـا عبقرية العربية،وكيف انها ظلت لغـة الحضارة في العالم المعمور طوال عصور عـدّة،وما زالت قادرة علـى مسايرة عصرنا الحاضر بحضارته المعقّـدة الضخمة . غير ان هـذا المعجم قد ضَمَّ الى جانب تلـك الاعلاق النفسية مـوادّ اخرى صُنعت صناعة واُختُرِعت اختراعا،فلم يكن لها مـا حفظ الحياة .. ومن اجـل ذلك كان على اللغوي في عصرنـا ان يؤرخ هذه اللغة فيقف علـى مراحلهـا ، وكيف استجابت لتلك المراحل الزمنية ازاء الحضارات المتعاقبة ، ثم يعرض لمـا لفظته القرون ، فانقطعت اخباره وعفت آثـاره . ومن العجيب أن مؤسساتنا العلميـة ومجامعنا اللغوية لـم تحقّق كثيرا من علـم اللغة التاريخي، فتقيـم للعربية تاريخا اسـوة بغيرها من اللغات المتقدمة في عصرنـا هـذا .

---

(١) السيوطي ، المزهر ١/١٣٧ ــ ١٣٨ .

(٢) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (ط دار المعارف) ص ٥٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٤) الانباري ، نزهة الالبّاء (ط مكتبة الاندلس ببغداد) ص ٢٢٠ .

(٥) القفطي ، أنباه الرواة ٣/١٧٢ .

(٦) ابن دريد ، الجمهرة ٣/٢٦٥ ــ ٢٧٠ .

(٧) اللسان ١٣/٣٩ (ط. دار صادر) مادة بخق ، بخدق . وكذا في الجمهرة (مادة بخدق) .

(٨) القالي ، الامالي ٣/٦٩ ، والمزهر للسيوطي ٢/٥٤٠ . والدكة ــ الودك ، والجبجبة ــ الكروش يحفظ فيها اللحم المجفف ، والصليف ــ ما صف من اللحم . علمة ــ الهلع الجدي .

(٩) الجمهرة ، المجلد الثالث مادة (كخب) .

(١٠) لعل كلمة « خبصة » في العامية الدارجة العراقية شيء من هذا .